Adab Al-Rafidayn

https://ojs.uomosul.edu.iq/index.php/radab

The Mongol invasion of Transoxiana in the book of Al-Kamil fi Al-Tarikh by Ibn Al-Athir (d. 630 AH / 1232 AD)

Mustafa Hashem Hanoon
Department of history / College of Arts /
University of Mosul / Iraq-Mosul

Article Information

Article History:
Received May **03,2025**
Revised May **17,2025**
Accepted May **18,2025**
Available Online December 2025

Keywords:
Mongols,
Transoxiana,
Khwarazmshah,
Bukhara

Correspondence:
Mustafa Hashem Hanoon
mustafa.h.a@uomosul.edu.iq

Abstract

Al-Kamil fi al-Tarikh by Ibn al-Athir (630 AH/1232 AD) is considered one of the important historical books. Its author excelled in presenting a tragic narrative that expresses emotion and panic, reflecting the magnitude of the tragedy of the Islamic world in the consciousness of contemporaries of the Mongol invasion, which is considered one of the most prominent transformations in the reality of the Islamic world at the beginning of the seventh century AH/thirteenth century AD. This invasion constituted a turning point in the history of the Khwarazmian state and the military, political, social and economic shocks that the Islamic East witnessed later, ending with the fall of the Abbasid Caliphate. Ibn al-Athir described the terror caused by the Mongol invasion and their crimes in people's souls and the general situation until the year 628 AH/1230 AD, when Ibn al-Athir stopped writing, as he died two years later. His information is distinguished by its accuracy and abundance about the dangerous and sensitive stage in Islamic history. Ibn al-Athir also followed the analytical and critical approach in his narration of the stories.

DOI: 10.33899/radab.2025.159796.2372, ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الغزو المغولي لبلاد ماوراء النهر في كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير (ت 630 هـ/1232م)

مصطفى هاشم عبدالعزيز *

المستخلص

* قسم التاريخ/ كلية الاداب / جامعة الموصل / الموصل -العراق

يعدُّ كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير (630ه/1232م) من الكتب التاريخية المهمة, اذ برز مؤلفه في تقديم سرد ماساوي يعبر عن العاطفة والهلع الذي عكس حجم فاجعة العالم الاسلامي في وعي معاصري الغزو المغولي, والذي يعد من ابرز التحولات في واقع العالم الاسلامي في مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي, فقد شكل ذلك الغزو نقطة فاصلة في تاريخ الدولة الخوارزمية وما شاهده المشرق الاسلامي فيما بعد من صدمات عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية انتهت بسقوط الخلافة العباسية, فقد وصف ابن الاثير الرعب الذي احدثه غزو المغول وجرائمهم في النفوس والموقف العام حتى سنة (628ه/1230م) التي يتوقف عندها ابن الاثير عن الكتابة, اذ انه قد توفي ابن الاثير بعدها بسنتين, وتمتاز معلوماته بدقتها وغزارتها عن المرحلة الخطيرة والحساسة في التاريخ الاسلامي, كما اتبع ابن الاثير المنهج التحليلي النقدي في سرده للروايات.

الكلمات المفتاحية: المغول, ماوراء النهر, خوارزمشاه, بخارى

المقدمة

عُدَ عز الدين علي بن محمد بن عبدالكريم ابن الاثير (ت 630ه/1232م) من ابرز مؤرخي القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين, من خلال اشتهاره بكتابه الموسوعي الكامل في التاريخ الذي يعد من اهم مصادر التاريخ الاسلامي العام, حتى عصره, ولد في جزيرة ابن عمر, ونشأ في بيئة علمية, مكنته من الجمع بين الثقافة الدينية والاطلاع الواسع على تواريخ الامم [1] وقد كتب مؤلفه الكامل في التاريخ في مرحلة تحولات حرجة من مراحل تاريخ العالم الاسلامي, اذ كان ابن الاثير شاهداً على تلك التحولات, لاسيما الغزو المغولي لبلاد ماوراء النهر والمشرق الاسلامي, وهو الغزو الذي شكل صدمة نفسية عميقة للمجتمع الاسلامي, وقد عبر ابن الاثير عن تلك الصدمة في اسلوبه وطريقة سرده للوقائع, اذ امتزج الحس التاريخي عنده بالوصف الوجداني, وبلغ في بعض المواضع حّدَ الندب [2]

الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر:-

قبل ان يبدأ المغول حملتهم العسكرية في غزو العالم الاسلامي, كانت بلاد ماوراء النهر مركزاً حضارياً وتجارياً مهماً, ضمن اطار الدولة الخوارزمية التي ورثت السلاجقة في المشرق الاسلامي, وقد كانت مدنها الكبرى, بخارى, سمرقند, خوارزم, مراكز علم وثراء ولكنها في الوقت ذاته عانت من توتر داخلي واضطرابات ادارية وضعف نسبي في بنيتها الدفاعية, الامر الذي جعلها عرضة لاي هجوم خارجي منظم.

بدأ جنكيز خان غزوه للعالم الاسلامي عام (٦١٦ ه/ ١٢١٨م) واجتاحت جيوشه دولة خوارزم التي تضم بلاد ما وراء النهر وأكثر مدن اقليم خراسان، وقد كان غزوه للعالم الاسلامي جزءاً من حركة واسعة تستهدف إقامة إمبراطورية مغولية بعدما نجح في توحيد القبائل المغولية تحت رايته وتأسست فعلاً في أيام جنكيزخان باحتلال امبراطورية الصين الشمالية وأواسط ايران وبلاد القفقاس وروسيا[3].

وقد ارتكب المغول في غزوهم لأقاليم دولة خوارزم المسلمة فضائع تهلع لها القلوب وتشمئز منها النفوس من تعذيب وقتل لعشرات الألوف من السكان الآمنيين دون تمييز بين الشيوخ والنساء والأطفال فضلاً عن النهب والتخريب حتى أشار ابن الأثير وهو مؤرخ معاصر الى ذلك الحدث وهو يعكس مشاعر أهل زمانه ومخاوفهم بقوله [4] ((لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فإن أقدم اليه رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نفي الاسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، وياليتني متُ قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً، إلا أني حثني جماعة من الاصدقاءعلى تسطيرها وانا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فيقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العلم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الآن لم يتلُ بمثلها، لكان صادقاً، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها" ان هذا الوصف الذي قدمه ابن الاثير قد اضفى بعداً اخلاقياً وادبياً [5]

([1]) زاده, عيسى متقي: ابن الاثير من العبقرية الى النرجسية, بحث منشور, مجلة دراسات في اللغة العربية وادابها, ع10, (2012م), ص88-89.

([2]) زاده: ابن الاثير من العبقرية الى النرجسية, ص89.

([3]) ابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس، (القاهرة، ١٣٥١)، ج 5، ص15؛ حافظ احمد, حمدي: الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، (مصر،1950)، ص 140.؛ خصباك، جعفر حسين: العراق في عهد المغول الايلخانين، مطبعة العاني، ط1، (بغداد، ١٩٦٨)، ص ٤١؛ رشاد عبد المنعم: الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي، بحث منشور، مجلة آداب الرافدين, ع4، جامعة الموصل، 1971، ص6.

([4]) خصباك: العراق في عهد المغول الايلخانين، ص1.

([5]) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن: الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت، ٢٠١٠)، ج10، 333.

وبهذه الروح المخربة سار جنكيز خان لغزو البلاد الإسلامية التي وصلها عام (٦١٦ه/ ١٢١٩م)، ومن الخطأ أن نعتقد ان جنكيزخان سار إلى تلك البلاد من غير خطة رسمها لنفسه، بل الواقع أن نظامه الحربي كان من أهم الأمور التي وضعها نصب عينيه، فاستطاع بذلك النظام وبفضل خططه الهجومية أن يحرز ما أحرزه من نجاح، فقد استولى أولاً على البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون [1]

وعلى ضوء ما سبق شرع جنكيزخان، في الاعداد للقيام بحملة كبرى على أراضي السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، وقد اعتمد المغول في الإعداد لتلك الحملة على قانون جنكيزخان المسمى بـ (الياسا)، فقد ورد في هذا القانون أن الاستعداد لاية حملة عسكرية، يؤخذ القياس على ما يشعر به رجل جائع وظمأن، وعلى هذا الاساس يؤخذ بنظر الاعتبار أن كل رجل مشترك جائع عطشان، ليقوم بتجهيز الجيش أفضل جهاز، ويتزود بأحسن زاد، لئلا يشعر الرجال المحاربون بجوع أو عطش. ومثل ذلك تقاس ظروف دوابهم التي تحملهم لئلا تموت ومعنى ذلك أن أية حملة عسكرية يجب أن تكون منسجمة تماماً مع قوة اضعف رجل محارب مشترك في تلك الحملة واعتبار أسوأ الأحوال التي سيعانيها الرجال [2].

كانت أولى المدن التي استهدفها جنكيزخان في بلاد ما وراء النهر هي مدينة (اترار) لأنها تعد من وجهة نظر جنكيزخان مفتاح اقليم ما وراء النهر، فقد ذكرها المؤرخ ابن الأثير في سرده لأحداث عام (616ه/ 1219م) ففي ذلك العام خرج جنكيزخان من بلاده قاصداً نواحي بلاد التركستان ومن هناك أرسل مجموعة من التجار الاتراك ومعهم كثير من الامتعة والبضائع الى بلاد ما وراء النهر وتحديداً مدينتي سمرقند و بخارى ليشتروا له ثيابا للكسوة، ولما وصل التجار الى مدينة اترار، وكان حاكمها الخوارزمي المسمى (ينال خان)، نائب سلطان علاء الدين خوارزمشاه عليها، فلما وصل التجار الى المدينة، أرسل حاكم المدينة (ينال) الى السلطان الخوارزمي يعلمه بوصولهم الى المدينة ويعلمه بما يحملونه من الأموال الكثيرة، إلا أن الاخير أرسل اليه برسالة وأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الاموال وارسالها إليه فقتلهم، وارسل بضائعهم وأموالهم الى السلطان، وكانت أموالا طائلة ولما وصلت الاموال والبضائع الى خوارزمشاه قام بتوزيعها على التجار في مدينتي بخاري و سمرقند [3]. الأمر الذي جعل الصدام بين المغول والدولة الخوارزمية محتماً بعد مقتل التجار المغول في اترار, والتي مثلت شرارة الحرب بين الطرفين على اعتبار ان تلك الحادثة هي اهانة لسيادة جنكيز خان ودولته ومساس برعاياه [4] وفي المقابل اجتهد حاكم مدينة اترار في الدفاع عن مدينتهِ حيث جهز الحصون وأعاد ترميم المدينة وبعض القلعة وجهز حامية قوية للدفاع ضد الخطر القادم [5] وقد أسرع المغول الى محاصرة المدينة وكان ينال خان يعرف مصيره إذا وقع أسيراً في يد أعدائه ولذلك فأنه لم يدخر جهداً في تحصين المدينة والدفاع عنها دفاع المستميت واستمرت المدينة محاصرة لأكثر من خمسة أشهر وكان يحاصرها كل من اوكتاي وجغتاي ولدي جنكيز خان [6] وتحصن ينال خان مع جنوده في قلعة المدينة ونجحوا في بادي الأمر في انزال خسائر جسيمة بصفوف المغول، غير أنه وجد نفسه في النهاية محاصراً من كل جانب وقد سقط العديد من جنوده صرعا من حوله ففقد الأمل في الصمود أمام المغول، ووقع أسير في قبضة المغول الذين أرسلوه بدورهم الى جنكيزخان حتى يقضي في أمره، وقتل جنكيزخان خصمه بطريقة بشعة رغبة في التشفي منه نظراً لما بدر منه ضد رعاياه من التجار وذكر النسوي أن جنكيزخان ((أمر بسبك الفضة وقلبها في أذنيه وعينيه فقتل تعذيباً جزاء عن فعله الفظيع وخطبه الشنيع وسعيه المذموم عند الجميع))[7]

وبعد ان أحتل جنكيز خان مدينة اترار قرر التوجه نحو مدينة بخارى، وبدوره أرسل السلطان خوارزمشاه جواسيسه الى جنكيزخان لمعرفة نواياه المقبلة، وما مقدار القوات التي ترافقه، على هذا الاساس سارت جواسيس السلطان خوارزمشاه وسلكوا طرقاً مختلفة عابرين المناطق الجبلية والمفازات التي على طريقهم، حتى وصلوا إلى هدفهم، وبعد أن جمعوا المعلومات الوافية عن جنكيزخان وقواته قرروا العودة سريعاً الى السلطان الخوارزمي وأخبروه بكل ما رأوهُ وقد ذكر ابن الأثير ذلك بقوله: (فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم، وأنهم يخرجون عن الاحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة)) وعند ذلك أصاب الندم خوارزمشاه على مقتل رسل جنكيزخان وأخذ أموالهم [8].

([1]) حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي, (مصر، 1949) ص 117؛ محمود، زياد علاء، ونزار محمد قادر: الجذور التاريخية للمغول والبداية الرسمية لقيام دولتهم 603ه/ 1205م، بحث منشور، مجلة أداب الرافدين، ع 90، جامعة الموصل، 2022، ص596.

([2]) الغامدي، سعد بن حذيفة: سقوط الدولة العباسية((دراسة جديدة لفترة حاسمة من تاريخ أمتنا الاسلامية ٥٤٩- 656ه, دار ابن حذيفة، ط3، (الرياض، 2004)، ص115.

([3]) الكامل في التاريخ؛ مج١٠، ٣٣٦.

([4]) النسوي، محمد بن أحمد: سيرة السلطان جلال الدين مبكرين، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، (مصر، ١٩٥٣)، ص91؛ ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، دار الرائد اللبناني، (لبنان، ١٩٨٢)، ص402.

([5]) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص91، حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص115.

([6]) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 402.

([7]) النسوي: سيرة السلطان جدال الدين منكرتي، ص91.

([8]) الكامل في التاريخ، مج ١٠، ص ٣٣٦.

وفي ضوء ما تقدم عبر جنكيز خان نهر سيحون وكان أول ما واجهه قلعة زرنوق، فهي من القلاع الشمالية لمدينة بخارى، ولم يبدِ أهلها في أول الأمر المقاومة، فقرروا الاستسلام لجنكيزخان الذي بدورهِ منحهم الأمان وقرر اصطحابهم معه حشراً [1] ثم واصل جنكيزخان مسيره حتى وصل الى مدينة نور فحاصرها أيضاً وأرسل اليهم رسولاً وبعد تبادل السفراء جاء اهاليها بالهدايا الى الخان، فأمر أهلها أن يأخذوا ما يتمكنون من أخذه من بذور وبقر وغيرها وأن يخرجوا منها وترك ما بقى في المدينة لجيشه لينهبه [2]

وبعد استيلاء جنكيز خان على زرنوق ونور وصل الى بوابة بخارى وفي هذا السياق ذكر ابن الاثير قائلاً: ((وأما الكفار فأنهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر، فوصلوا الى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزمشاه وحاصروها، وقاتلوها ثلاثة أيام قتالاً شديداً متتابعاً، فلم يكن العسكر الخوارزميون بهم القوة ، ففارقوا البلد عائدين الى خراسان، فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر احد ضعفت نفوسهم، فأرسلوا القاضي وهو بدر الدين قاضي خان، ليطلب الأمان للناس، فأعطوهم الامان)) . [3]

ونتيجة لذلك فتحت أبواب المدينة في الرابع من ذي الحجة عام (616ه/1218م) [4] فدخل المغول مدينة بخارى, وأظهروا لأهلها العدل وحسن السيرة، ثم توجه جنكيز خان الى القلعة وفي هذا الشأن يذكر ابن الاثير: ((وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم ، فأعتصموا بالقلعة فلما اجابهم جنكيز خان الى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارى)) [5] .

وفي ضوء ما سبق فقد احتمى بالقلعة نحو أربعمائة فارس لم يتمكنوا من الهرب مع أصحابهم ، كما طلب جنكيز خان من اهل البلد الخروج معه لمحاصرة القلعة، ومن قتل فكانت تلك بداية الاستخفاف والاستذلال لأهل بخارى فخرجوا خوفاً من بطشه وأمرهم بردم الخندق المحيط بالقلعة ففعلوا وبلغ من سوء المغول واستهتارهم أن استخدموا كل شيء في ردم هذا الخندق حتى القيت المنابر وربعات القرآن في الخندق [6].

و بعد جهد جهيد وقتال مرير دخل جنكيز خان وأصحابه القلعة وقتلوا من بقي بها من جند المسلمين الذين أصروا على الدفاع عن القلعة بكل ما يملكون حتى آخر لحظة [7] .

وحين فرغ المغول من احتلال القلعة ودخولها ، طلب جنكيز خان أن يكتب له وجوه القوم ورؤسائهم فلما عرضوا عليه أمر باحضارهم فحضروا وطلب منهم أحضار ((النقرة)) (8) ، التي باعهم اياها خوارزمشاه وقد أخذت من تجار المغول ، فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يدي جنكيز خان ، ثم امرهم بالخروج من البلد، فخرجوا مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ودخل المغول البلد، فنهبوا وقتلوا من وجدوا فيها وأحاطوا بالمسلمين فاقتسموهم ونسائهم وكان يوماً شديداً على المسلمين (9) .

وقد وصف أبن الأثير ذلك اليوم قائلاً: ((وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدي سبا, وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغنَ بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون ولايستطيعون أن يدفعوا عن انفسهم شيئاً مما نزل بهم ، فمنهم من لم يرضَ بذلك، واختار الموت على ذلك، فقاتل حتى قتل ، وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين، الفقيه الأمام ركن الدين امام زاده وولده ، فأنهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قُتلا)) [10] .

([1]) حشراً: الحشر اكثر في ذلك الحين هم الجنود غير المنتظمين الذين كان يستفاد منهم في الأعمال غير الحربية، مثل تسوية الخنادق بالأرض وجمع الاشجار لسد الانهار وتخريب القلاع وما اليها. الجويني، عطا ملك: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي نقله عن الفارسية: محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، ط1، (د.م، 1985)، مج1، ص112، 113.؛ اقبال، عباس: تاريخ ايران بعد الاسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، نقله عن الفارسية : محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (القاهرة، د. ت)، ص٣٥٣-354.

([2])الجويني : تاريخ فاتح العالم ، مج 1 ، ص ١١٤، ١١٥ ; أمين, محمد فتحي : الغزو المغولي لديار الاسلام ، دار الاوائل, ط1, (سورية ، ٢٠٠٥), ص69.

([3])الكامل في التاريخ , مج ١٠، ص339.

([4])ابن الاثير: الكامل في التاريخ , مج ١٠ ، ص ٣٣٩؛ الذهبي، شمس الدين محمد : العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية ، (بيروت ,1985) ج2, ص172, ; دول الاسلام: تحقيق: فهيم محمد شلتوت, محمد مصطفى ابراهيم, دار أحياء التراث الاسلامية, (قطر, 1988) ج2, ص119

([5])الكامل في التاريخ : مج ١٠ ، ص ٣٣٩.

([6])ابن الاثير الكامل في التاريخ، مج ١٠، ص ٣٣٩ ؛ النويري ، شـــهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب مصـــطفى فواز، دار الكتب العلمية، ط1 ، (بيروت, 2004) ج26-27 ص212

([7])فهمي ، عبد السلام عبد العزيز: تاريخ الدولة المغولية في إيران ، دار المعارف, (القاهرة, 1981) ص 61

([8]) النقرة: وهي مجموعة من الاموال والبضـائع العائدة الى تجار المغول التي صـادرها الحاكم الخوارزمي علاء الدين خوارزمشاه بمسـاعدة حاكم مدينة اترار المدعو (ينال خان). ينظر: ابن الاثير: الكامل في التاريخ, مج10, ص340.

([9]) ابن الاثير في الكامل في التاريخ, مج ١٠ ، ص ٣٤٠ . ! النويري: نهاية الأرب ، مج26- ٢٧، ,ص212; الذهبي : تاريخ الاسلام حوادث ووفيات (٦١١-٦٢٠) تحقيق: محمد عبد السلام التدمري, دار الكتاب العربي ، ط2، (بيروت ، ٢٠٠١) ، ص 42

([10])الكامل في التاريخ مج 10 ,ص340

كما قاتل القاضي صدر الدين خان دفاعا عن ماله وعرضه وقتل على يد المغول، ومن استسلم من اهل بخارى أخذ اسيرا واشعل المغول النيران في البلاد، ونواحيها من مدارس ومساجد وقام المغول بتعذيب الناس بأنواع العذاب [1] .

ان المذبحة التي اقدم عليها جنكيز خان تجاه سكان مدينة بخارى وصفها أحد الفارين الذين تمكنوا من الوصول الى خراسان وقال مقولة مقتضبة عبر فيها تعبيراً صادقاً عما حدث
((جاءوا، وحفروا، واحرقوا، وقتلوا، ونهبوا, وذهبوا)) [2] .

وبعد انتهاء المغول من احتلال مدينة بخارى قرروا التوجه نحو مدينة سمرقند والاستيلاء عليها، وتعدُّ سمرقند حاضرة اقليم بلاد ما وراء النهر، كما عمل جنكيز خان على اصطحاب عدد كبير من الأسرى من مدينة بخارى ليستعين بهم في حصار هذه المدينة الجديدة على أنه قتل منهم في الطريق عدداً كبيرا وخاصة هؤلاء الذين ظهر عليهم علامات التعب ولم يقدروا على مواصلة الطريق [3] .

وقد ذكر ابن الاثير ذلك في معرض حديثه عن مدينة سمرقند إذ قال : ((فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتلوه)) [4] كما انضم الى جيش جنكيز خان الكثير من الفرق المغولية التي أنجزت اعمالها، واستمد القائد المغولي ومن معه من رجال وعتاد للاجهاز على مدينة سمرقند [5] .

زحف جنكيز خان الى سمرقند عبر وادي زرفشان ولم يلق مقاومة تذكر سوى في موقعين اثنين : الأول قلعة بوسي، والثاني قلعة ساري بول، وبعد الاستيلاء على هاتين القلعتين تقدم جنكيز خان الى مدينة سمرقند وحاصرها [6] .

وما أن ظهر المغول أمام اسوار مدينة سمرقند حتى دب الذعر في نفوس السكان، وفي تلك الأثناء أمر جنكيز خان الاسرى من المسلمين يسوقهم جند المغول بالتقدم لاحتلال المدينة فتصدت لهم فرقة من الجند الخوارزمي التي سرعان ما حلت بها الهزيمة [7] .

كذلك رأى فريق من الجنود الخوارزمية من ذوي الأصول التركية أن يستسلموا للمغول على اساس أنهم والمغول من أصل واحد فقبل جنكيز خان فكرتهم ووعدهم بادخالهم في خدمته [8] وحينئذ فتحت أبواب المدينة وقد تحدث ابن الاثير عن هذه الحادثة في سياق كلامه إذ قال : ((فطلبوا الأمان، فاجابوهم الى ذلك، ففتحوا أبواب البلد، ولم يقدر العامة على منعهم ، وخرجوا إلى الكفار باهلهم وأموالهم ، فقال لهم الكفار ادفعوا الينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم الى مأمنكم)) [9] .

على أن المغول لا يقدرون قيمة العهود والمواثيق لذلك لا نعجب ، إذ أمر جنكيز خان السكان على عادته بالخروج من المدينة وأعمل القتل في رقاب الذين لم يخرجوا, ولما دخل الجيش المغولي المدينة استولى على قلعتها ، وذبح عدداً كبيراً من السكان بعد أن اختار عدداً كبيراً منهم واهداهم لأولاده وحريمه وقواده ، كما اختار عددا كبيراً منهم للانتفاع بهم في الاعمال الحربية [10] , وأخيراً سمح لخمسين الفاً من السكان بالعودة الى مدينة سمرقند بعد أن دفعوا مائة الف قطعة ذهبية، وقد قدر ابن العبري هذه الفدية بمائتي الف دينار قام بجمعها اثنان من كبار رجال سمرقند [11] .

أما ابن الاثير فقد ذكر في كتابه أن المغول فعلوا مع أهل سمرقند مثلما فعلوا مع أهل بخارى تماماً من النهب ، والقتل، والسبي والفساد وذكر أيضاً أن المغول دخلوا سمرقند فنهبوا ما فيها، كما قاموا باحراق المسجد الجامع وتركوا باقي البلد على حاله, واعتدوا على النساء وعذبوا الناس أنواع العذاب في طلب المال, و قاموا بقتل من لم يصلح للسبي [12] .

([1])ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص 340.
([2]) الجويني: تاريخ جهانكشاي ، مج 1 ، ص ١١٩ .
([3])ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ،ص٣٤٠ ; النويري : نهاية الأرب ، ج26-27, ص213; دحلان ، السيد الحمد بن زيني: الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، مطبعة مصطفى محمد، (القاهرة, 1354ه) ج2, ص28.
([4])الكامل في التاريخ، مج ١٠ ، ص ٣٤٠.
([5]) الجويني: تاريخ جهانكشاي،مج ١ ، ص ١٢٧.
([6])ابن العبري : مخطوطة تاريخ الازمنة ، ترجمة السباعي محمد الساعي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، (القاهرة ، ٢٠٠٧) ص77; حطيط, أحمد : حروب المغول ، دار الفكر اللبناني ، (بيروت ١٩٩٤) ص34.
([7])ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مج ١٠، ص ٣٤١.
([8])ابن الا ثير الكامل في التاريخ، مج ١٠ ،٣٤١١ ;; مجهول : حملات الغزو المغولي للشرق كما عاشها العلامة ابن ابي الحديد المدائني ، ترجمة: مختار الجليلي دار لارماثون ،(باريس، ١٩٩٥), ص34 ;
محمد, هشام: دولة التتار الشروق والغروب، دار مشارق ، ط1, (القاهرة, 2008), ص 70.
([9])الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص ٣٤١
([10])ابن العبري : مخطوطة تاريخ الأزمنة، ص ٧٧ ; حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول، ص 115.
([11])تاريخ مختصر الدول ، ص ٤١٠.
([12])الكامل في التاريخ ، مج ١٠، ص ٣٤١

وهكذا تم استيلاء المغول على مدينة سمرقند في أوائل عام (617ه /1220م) وبسقوط سمرقند استكمل جنكيز خان سيطرته على كامل أقليم ما وراء النهر الذي كان كخط الدفاع الأول للدولة الخوارزمية فانعكس ذلك سلبا على الخطط الدفاعية لعلاء الدين خوارزمشاه و تحطمت معنويات جنده مما سهل على المغول الاستيلاء على بقية الاقاليم الخوارزمية [1] .

عمل جنكيز خان على السيطرة على خوارزم بشكل نهائي وقبل أن يقدم على ذلك ، قام بتقسيم قادته الى عدة اقسام وقد ذكر ابن الاثير ذلك إذ قال : ((قسم أصحابه عدة أقسام)) [2] فبعث قسماً من جيشه الى مدينة ترمذ [3] , وأرسل القسم الآخر الى كلاثة والتي هي قلعة حصينة على جانب نهر جيحون وتعدَّ من أحصن القلاع وأمنع الحصون [4] .

وبالفعل تمكنت الجيوش التي قام بارسالها جنكيز خان من اتمام المهمة الموكلة بها، وقد تمت السيطرة على مدينة ترمذ وقلعة أو حصن كلاثة ، وقام الجيش المغولي بالقتل والاسر والسبي والنهب والتخريب [5] فلما فرغ الجيش من ذلك الامر أمرهم جنكيز خان بالعودة الى مدينة سمرقند، وقد كان جنكيز خان موجودا بها، ومن هذه المدينة امر جنكيز خان بتجهيز جيش عظيم مع احد أولاده من أجل السير الى خوارزم والسيطرة عليها بشكل نهائي [6] .

ومن أجل اتمام المهمة بشكل صحيح للسيطرة على خوارزم اجتاز الجيش المغولي عام (617ه/1220م) نهر جيحون، واستولى على مدينة جرجانية التي تعدُّ حاضرة اقليم خوارزم وهي مدينة (اورجنج) او (كوكابنج) و احدث فيها المغول مجزرة كبيرة وأحرقوها عام (618ه/1221م) [7] ثم تابع الجيش المغولي زحفه الى خوارزم التي تحصن بها الجيش الخوارزمى يسانده الاهالي وكانوا معروفين بالشجاعة والكثرة، وحدث القتال بين الطرفين، وتمكن الجيش الخوارزمي بمساندة أهالي البلاد من ايقاع العديد من القتلى في صفوف الجيش المغولي [8] ونتيجة لذلك أرسل الجيش المغولي في خوارزم الى جنكيز خان يطلبون منه المساعدة وبدوره أرسل جنكيز خان الألوف من المقاتلين، ولما وصلوا إلى خوارزم, تمكنوا من احتلال أحد أطراف المدينة [9] , وفي المقابل اجتمع أهالي البلد بعد ان يئسوا من الجيش الخوارزمي وقرروا أن يدافعوا عن مدينتهم، وبالفعل قاموا بالهجوم على الجيش المغولي الذي كان متموضعاً في أحد أطراف المدينة ، لكن الأهالي لم يتمكنوا من أخراجهم ، الا ان الجيش المغولي قرر الزحف باتجاه خوارزم واحتلالها بصورة نهائية وفي هذا الصدد ذكر ابن الاثير: ((وما يزالوا يقاتلونهم, والنتر يملكون محلة بعد محلة، وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم، فكان النساء والصبيان يقاتلون، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه)) [10]. وبعد أن تمكن المغول من السيطرة على خوارزم بشكل نهائي، وعلى عادتهم قاموا بقتل كل من لاقوه من السكان نتيجة للمقاومة التي أبدوها، ثم قاموا باحراق ونهب كل خوارزم، ومن الافعال القبيحة التي قام بها الجيش المغولي، أقدموا على فتح أحد السدود المقامة على نهر جيحون بقصد أغراق البلد، ونتيجة لذلك دخل الماء الى جميع نواحي خوازرم مما أدى الى غرق البلاد وتهديم جميع الابنية ولم يسلم احد من اهالي خوارزم من هذا الضرر [11] .

وفي هذا الصدد ذكر لنا ابن الاثير تلك الحادثة ((وهذا ولم نسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه، نعوذ بالله من الخور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر)) [12] .

اما السلطان علاء الدين خوارزشاه فسارع إلى الهرب لينجو بنفسه بعد أن ترك جيشه هائما على وجههِ فتعقبه المغول الى جزيرة أسكون (باب سكون) في بحر الخزر(بحر طبرستان) وتوفي في شوال (617ه/1221م) بعد أن عهد بالبيعة لولده جلال الدين منكبرتي [13] .

بعد أن أنجز جنكيزخان مهمته في تدمير الدولة الخوارزمية قرر العودة إلى منغوليا بعد أن ترامت الى اسماعهِ أخبار الاضطرابات التي قامت ضده في شمال الصين والتبت .

---

(1)الجويني: تاريخ جهانكشاي ، مج ١، ص 131-132; حطيط: حروب المغول ، ص 34-35.
(2)الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص ٣٥٧ .
(3) ترمذ: مدينة مشـــهورة من امهات المدن, راكبة على نهر جيحون من جانبه الشـــرقي, متصـــلة العمل بالصـــغانيان للمزيد: ينظر: الحموي ، شـــهاب الدين ابن عبد الله : معجم البلدان، دار صادر،(بيروت, د.ت.), مج 2, ص26.
(4)ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص ٣٥٧.
(5)ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص ٣٥٧.
(6)الجويني: تاريخ جهانكشاي، مج ١، ص 131 ، ١٣٥ ; ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص410.
(7)الجويني: تاريخ جهانكشاي ، مج ١، ص 131 ، ١٣٥ ; ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص410.
(8)ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص361.
(9)ابن الأثير: الكامل في التاريخ, مج ١٠ ، ص361.
(10)الكامل في التاريخ, مج ١٠ ، ص ٣٦١.
(11)ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص ٣٦١.
(12)الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص ٣٦١.
(13)ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مج ١٠ ، ص ٣٦١; النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص107-108; الذهبي : العبر في خبر من غبر ، ج3، ص 175.

فسلك طريق هراة وانتقل الى أطراف بيشاور وولاية البنجاب، وبعد أن أمضى الصيف في باميان، توجه الزعيم المغولي الى كابل ومنها الى حدود نهر جيحون ، ثم عبر نهر جيحون الى سمرقند في عام (620ه/ 1223م) ووصل الى حدود الدولة الخوارزمية, واستراح في صيف عام (620ه/ 1223م) في صحراء قلان باش (في القطاع الشرقي من منطقة سيحون الحالية الى الشمال من جبال الاسكندر) ، ثم قضى الصيف العام التالي (621ه/1224م) في المنطقة بنهر ارتيش ومنها انتقل الى عاصمته قراقورم في منغوليا التي وصلها في ربيع (622ه/1225م) بعد أن غاب عنها قرابة ستة أعوام [1] .

الخاتمة

1- يعدُّ المؤرخ ابن الاثير (ت630ه/1232م) من ابرز مؤرخي عصره الذين وصفوا لنا بدقة الغزو المغولي لبلاد ماوراء النهر والدليل على ذلك كثرة النصوص التي أوردها عن هذا الغزو والتي شكلت وعياً اسلامياً عن المغول.

2- لم يكن الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر اعتباطياً انما كان الغزو جزءاً من حركة واسعة تستهدف اقامة أمبراطورية عالمية وتاسست فعلاً ايام جنكيز خان.

3- شكل الغزو المغولي لبلاد ماوراء النهر حدثاً مفصلياً في التاريخ الاسلامي من حيث مستوى الدمار والخراب الذي خلفه وماتركه من اثر في نفوس المسلمين.

4- أدى الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر الى تدمير تلك البلاد بسبب مالحق بها من دمار و تخريب وحرق وقتل.

5- كانت مدينتا بخارى وسمرقند من أكثر مدن بلاد ما وراء النهر دماراً ، وذلك بسبب الاحتلال المغولي لهما ، فقد تعرضا للتدمير والخراب سياسياً واجتماعياً وعسكرياً.

6- واخيرا يُعدُّ احتلال المغول لبلاد ما وراء النهر مفتاحا لاندفاع المغول نحو العراق واحتلال بغداد بعد ثلاثة عقود من الزمن واسقاط الخلافة العباسية.

Reference

1. Al-Azzawi, Abbas: The History of Iraq Between Two Occupations, Publications. Al-Maktaba al-Haydariyya, (Qom 1425 CE), vol. 1.

2. Al-Dhahabi The States of Islam: Edited by Fahim Muhammad Shaltut, Muhammad Mustafa Ibrahim, Dar Ihya' al-Turath al-Islamiyyah, (Qatar, 1988), Vol. 2.

3. Al-Dhahabi History of Islam: Incidents and Deaths (611-620), edited by Muhammad Abd al-Salam al-Tadmuri, Dar al-Kitab al-Arabi, 2nd ed. (Beirut, 2001).

4. Al-Dhahabi, Shams al-Din Muhammad: Lessons in the News of Those Past, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, (Beirut, 1985), Vol. 2.

5. Al-Ghamdi, Sa'd ibn Hudhayfah: The Fall of the Abbasid State (A New Study of a Critical Period in the History of Our Islamic Nation, 549-656 AH), Dar Ibn Hudhayfah, 3rd ed., (Riyadh, 2004).

6. Al-Hamawi, Shihab al-Din Ibn Abdullah: Mu'jam al-Buldan, Dar Sadir, (Beirut, n.d.), Vol. 2.

7. Al-Juwayni, Ata Malik: The History of the World Conqueror Jahangshai, translated from Persian by Muhammad al-Tunji, Dar al-Malah for Printing and Publishing, 1st ed., (n.d., 1985), Vol. 1.

[1]العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ، انتشـــارات. المكتبة الحيدرية ، (قم 1425م) ،ج ١ ، ص ١٢٧ ; الصـــياد, فؤاد عبد المعطى: المغول في التاريخ ، دار النهضـــة العربية ، (بيروت, د.ت.) ، ص ١٣٦; حطيط : حروب المغول ، ص40

8. Al-Nasawi, Muhammad ibn Ahmad: Biography of Sultan Jalal al-Din Maqqirin, edited by Hafez Ahmad Hamdi, Dar al-Fikr al-Arabi (Egypt, 1953).

9. Al-Nuwayri, Shihab al-Din Ahmad ibn Abd al-Wahhab: Nihayat al-Arab fi Funun al-Adab, edited by Najib Mustafa Fawaz, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 1st ed., (Beirut, 2004), vols. 26-27.

10. Al-Sayyad, Fouad Abd al-Mu'ti: The Mongols in History, Dar al-Nahda al-Arabiyya, (Beirut, n.d.).

11. Amin, Muhammad Fathi: The Mongol Invasion of the Lands of Islam, Dar al-Awa'il, 1st ed. (Syria, 2005).

12. Anonymous: The Mongol Invasion Campaigns of the East as Experienced by the Scholar Ibn Abi al-Hadid al-Madaini, translated by Mukhtar al-Jalili, Dar al-Mathun, (Paris, 1995).

13. Dahlan, Sayyid al-Hamad ibn Zayni: The Islamic Conquests after the Prophetic Conquests, Mustafa Muhammad Press, (Cairo, 1354 AH), Vol. 2.

14. Fahmi, Abd al-Salam Abd al-Aziz: History of the Mongol State in Iran, Dar al-Ma'arif, (Cairo, 1981).

15. Hafez Ahmad, Hamdi: The Islamic East Before the Mongol Invasion, Dar al-Fikr al-Arabi, (Egypt, 1950).

16. Hafez Ahmad, The Khwarazmian State and the Mongols, Dar al-Fikr al-Arabi, (Egypt, 1949).

17. Hattit, Ahmad: The Mongol Wars, Dar al-Fikr al-Lubnani, (Beirut 1994).

18. Ibn al-Athir, Izz al-Din Abu al-Hasan: Al-Kamil fi al-Tarikh, edited by Abd al-Salam al-Tadmuri, Dar al-Kitab al-Arabi (Beirut, 2010), vol. 10.

19. Ibn al-'Ibri: A Brief History of the States, Dar al-Ra'id al-Lubnani (Lebanon, 1982).

20. Ibn al-'Ibri: Manuscript of History of the Times, translated by al-Sibai Muhammad al-Sa'i, General Authority for Government Printing Affairs (Cairo, 2007).

21. Ibn 'Imad al-Hanbali, Abu al-Falah Abd al-Hayy: Nuggets of Gold in the News of Those Who Have Passed, Maktaba al-Quds (Cairo, 1351), vol. 5.

22. Iqbal, Abbas: History of Iran after Islam from the Beginning of the Zahiri State until the End of the Tajiri State, translated from Persian by Muhammad Ala' al-Din Mansour, Dar al-Thaqafa for Publishing and Distribution (Cairo, n.d.).

23. Khasbak, Ja'far Husayn: Iraq during the Ilkhanate Mongol Era, Al-Ani Press, 1st ed., (Baghdad, 1968).

24. Mahmoud, Ziyad Alaa, and Nizar Muhammad Qadir: The Historical Roots of the Mongols and the Official Beginning of the Establishment of Their State, 603 AH/1205 AD, published research, Adab al-Rafidain Journal, issue 90, University of Mosul. 2022.

25. Muhammad, Hisham: The Tatar State: Sunrise and Sunset, Dar Mashareq, 1st ed., (Cairo, 2008).

26. Rashad Abd al-Mun'im: The Terror Caused by the Mongol Invasion, published research, Journal of Rafidain Literature, issue 4, University of Mosul, 1971.

27. Zadeh, Issa Muttaqi: Ibn al-Athir from Genius to Narcissism, published research, Studies in Arabic Language and Literature Journal, Issue 10, (2012).